انتصار خطاب

«كنا فى رمضان، وفى وقت السحور أتى البوليس، قلبوا البيت، سألهم صلاح هل أحضر شنطتى؟ همس ضابط فى أذنه: انتوا الاتنين. تشعلق الأولاد فى رقبتى لكن عمر قال فى كبرياء: متخافيش يا ماما علينا، فيه فى الثلاجة قلقاس ولحمة وبيض، وأنا باعرف أسلق البيض. وسالت دموعى ولمحت دموعا فى عينى صلاح وحتى فى عينى بعض الجنود».
انتصار خطاب
(فى حوارى معها)

.. «كنت بنتا عادية جدا، تعلمت تعليما متوسطا وتوظفت فى وزارة المعارف، لكننى فجأة أصبحت ملء السمع والبصر، ونشرت صورتى فى عشرات الصحف، فقد قبض على فى ١٩٤٦ مع ثلاثة من الشبان الذين اشتهروا فى ساحة الاغتيالات السياسية (كمال يعقوب – كمال منسى – محمود فهمى) والتهمة هى تهديد الشاهد الأول فى قضية اغتيال أمين باشا عثمان بأن يتم اغتياله هو أيضا إذا لم يغير أقواله ويشهد لصالح المتهمين بالاغتيال». ولعلها المرة الأولى والأخيرة التى تقف فتاة مصرية أمام المحقق بتهمة كهذه.

انتصار تزوجت ابن عمها صلاح، الموظف بوزارة العدل، منذ اللحظة الأولى أحست بشىء ما. أوراق يخبئها صلاح واجتماعات تعقد فى غرفة الجلوس، وعندما تدخل بالشاى يصمتون، الشىء الوحيد المتاح هو الكتب المرصوصة فى كل مكان، وبدأت تقرأ، وبدأت تقتنع، وبدأت تلح على صلاح أن تشاركه. رفض بشدة، واحد منا يكفى والآخر يبقى ليهتم بالأولاد. لكنها، وعبر الكتب، دخلت إلى عالم الماركسية الرحب. وعرفت هى الطريق، فخلال معركة العدوان الثلاثى شاركت بحماس فى «اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية» ونظمت حملة واسعة للتبرع بالدم، والتقطها الرفاق فى خضم هذا النضال الجماهيرى الواسع. وانضمت إلى التنظيم ليس عن طريق صلاح وإنما عن طريق الجماهير. لكن العلاقة مع

النظام الناصرى تتكهرب وتبدأ فى يناير ١٩٥٩ أوسع حملة اعتقالات شهدتها الحركة الشيوعية، أفلت الزوجان لكن القلق بدأ يفترسهما، وطمأن كل منهما الآخر. سيأخذون واحداً ويتركون الآخر، لكنهم أخذوا الاثنين.

وفى عنبر الشيوعيات بسجن القناطر كانت انتصار الأكبر سنا (ولدت عام ١٩١٧) والأكثر خبرة، ولكن الصدام جاء مبكرا، فعبد الناصر تحت حصار من الإعلام العالمى بسبب اعتقال سيدات نفى فى تصريح لمراسل أجنبى أن يكون فى مصر معتقلات! الصحف نشرت الخبر بارزا وإحدى السجانات همست بالخبر فى أذن انتصار. وتحركت الرفيقات جمعن متاعهن كل فى حقيبتها وببساطة خرجن من العنبر. على فين؟ والإجابة: الرئيس قال مفيش معتقلات واحنا حنخرج. واحتار المأمور المدرب فى كيفية التعامل معهن. وأخيرا لجأ إلى خبرته فى السجون؛ استحضر عديداً من سجينات المخدرات والدعارة وأطلقهن على الشيوعيات، وطبعا انتصر المأمور.

وتروى انتصار مأساتها فى السجن: «كل شىء يمكن احتماله، التجويع، الضرب، السجن، التفتيش الفاضح الذى يقوم به ضابط رقيع عندما يفتش ببذاءه حقيبة ملابس واحدة منا، حتى البعد عن صلاح والأولاد ممكن، لكن الذى لا يحتمل هو دموع ابنى وهو يشكو مما لا أستطيع أن أمنعه»، كانت الزيارات ممنوعة، لكن العلاقة الحسنة مع السجانات سمحت بأن يأتى عمر وهشام لزيارة مسجونة عادية وتراهما انتصار. بكى عمر غاضبا، الجدة تشتم صلاح وانتصار اللذين ذهبا للشيوعية تاركين ابنيهما. و«الأولاد فى الشارع بيشتموهم: أبوكم وأمكم فى السجن» ثلاث سنوات مضت. وفى عام ١٩٦٢ وصلت رسالة مهربة من عمر قال فيها: «إنت وزوجك (لم يقل بابا) تتركان أولادكما فى حين أن الأمر لا يحتاج أكثر من أن توقعا على ورقة فتخرجان فوراً. جدتى قالت إن فلانا فعلها وخرج» (كان الخروج سهلا بالفعل ولكن بعد أن يوقع المعتقل ورقة تمتدح الرئيس عبد الناصر وتستنكر الشيوعية) وتمضى رسالة عمر: «هذا الخطاب إنذار. أنا تعبان جدا، جدتى تشتمكما كل يوم. إذا استمر موقفكما هذا فهذا آخر خطاب منى لأنى سأنتحر. سوف أحرق نفسى». وتتوقف انتصار وهى تحكى لى، تبتلع ريقها وتمسح أطراف عينيها من دموع أتت بغير إرادتها وتقول: «كنت سأموت من الحزن، وكنت أخشى على رفيقاتى من الانغماس فى الحزن، كنت أخفى وجهى تحت البطانية وأبكى، لكن كل بحار العالم لو

تحولت إلى دموع لا تكفى لشفاء قلب أم، وبعدها علمت أن الأمن السياسى أرسل مندوبا إلى جدة الأولاد وطلب منها أن تضغط على لكى أوقع وأفتح باب الاستنكار أمام المعتقلات، ومال رجل الأمن على عمر وقال له: «اكتب لماما هددها علشان توقع على ورقة وتخرج لكم»، وتمضى انتصار فى حوارها معى: «ساعتها ازددت احتقارا لنظام كهذا وقررت البدء بهجوم مضاد وبدأت أمطر ابنای برسائل مهربة أحكى لهما فيها قصتى وقصة صلاح، ولماذا نحن فى السجن، وما معنى أن تدافع عن الفقراء وعن الديمقراطية وأن تضحى فى سبيل المبدأ، والمثير للدهشة أن هذه الرسائل أثمرت وبدأ عمر وهشام يحتملان الانتظار».

وفى عام ١٩٦٤ يفرج عن انتصار ثم يفرج عن صلاح. ويتواصل نضالهما معاً.

سألتها وهى تمسح دموعها بعد أن حكت قصة رسالة عمر التى هدد فيها بالانتحار قلت لها: «كيف احتملت؟»، قالت: «بكيت كثيراً لكننى أقنعت نفسى أننى إذا أردت أن أكون جديرة بمصريتى وبالمبدأ وبصلاح فإن علىّ أن أحتمل.. واحتملت».